مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 13 / العـــدد: 01 (2023)، ص 443-454

نشأة المعجم العربي الحديث ومراحل تطوره.

The origins of the modern Arabic lexicon and its stages development.

إمكراز عويشة*

المركز الجامعي مرسلي عبد الله، تيبازة (الجزائر)

salihasalsabil12@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/11/22 تاريخ القبول: 2023/02/26

ملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية دراسة موجزة حول نشأة المعجم العربي الحديث ومراحل تطوره من خلال التركيز على مفهوم المعجم والوقوف على الفروق التي تميزه عن مفهومي القاموس والموسوعة بتتبع مختلف التسميات والمصطلحات التي عرف بها عبر الزمن بدءا من البحث في غريب القرآن والحديث لشرح اللفظ الغامض، مرورا بتصنيف المادة المعجمية وإصدارها في شكل رسائل صغيرة تحمل عنوان كتاب؛ وهي عبارة عن معاجم مختصة، وصولا الى بناء معاجم عامة متكاملة تؤرخ عادة بمعجم العين وما تلاها من مراحل تنم عن تطور المعجم العربي.

يعد التأليف المعجمي عند العرب المتقدمين والمتأخرين من أعظم ما ابتكره الإنسان لحماية اللغة والحفاظ عليها لأجل بقائها دائمة حية ومتطورة تكسبه ثروة لغوية يرجع اليها ليتزود منها بما يتلاءم وحاجاته في التعبير عن أفكاره ومشاعره ومعانيه، ونقل خبراته ومعارفه، وبذلك يحيي لغته ويبقيها حية ونامية.

ونظرا للأهمية القصوى للمعجم والضرورة الملحة لوجوده في حياة الإنسان نطرح الإشكالية الآتية:

ما هو مفهوم المعجم؟ وماهي مراحل تطوره؟

الكلمات المفتاحية: المعجم؛ مراحل تطوره؛ تسميات المعجم؛ القاموس؛ الموسوعة.

Abstract:

This research paper deals with a brief study on the emergence of modern Arabic lexicon and its stages of development by focusing on the concept of the lexicon and standing on the differences that distinguish it from the concept if the dictionary and the encyclopedia by tracing the various nomenclature and terms that have been known over time, starting with the search in the stronge qur'an and hadith to explain the ambiguous word, passing through the classification of lexical material and its issuance in the form small letters bearing the title of a book wich are specialized dictionaries,leading to the construction of integrated general dictionaries that are usually dated in Al-Ain lexicon and the subsequent stages that indicate the development of the Arabic lexicon.

The lexical composition of the advanced and the late Arabs it is one of the greatest inventions of mann to protect the language and its preservation in order for it to remain permanently alive and evolving wich gives him a linguistic wealth that he returns to in order to

* إمكراز عويشة.

obtain from it what suits his needs in expressing his thoughts the feelings,and meanings,and transferring his experiences and knowledge, and thus perhaps he or she threw it alive, forgeting hey given the paramount importance of the lexicon and the urgent necessity of its presence in human life,we raise the problem the following what is the concept of lexicon?And what are the stages of its development?
Key Words: The lexicon; Stages of the development of lexicon; Nouns if the lexicon; Dictionary; Encyclopedia.

1. **مقدمة:**

إن اللغة العربية تجمع بين طياتها العديد من الألفاظ المتباينة، فمنها ما هو سهل وواضح، ومنها ما هو صعب الفهم لقلة استعماله وشيوعه على ألسنة الناس ولا يدركه إلا المتخصصون مما دعا إلى ضرورة وجود مصادر يعتمد عليها في الوقوف على معاني ودلالات هذه الألفاظ والكلمات، ولم يكن ذلك بمنأى عن أولئك العرب الذين أدركوا ذلك، فكان همهم المسارعة إلى جمع اللغة من مظانها، وكان ذلك في القرن الثاني للهجرة خاصة عندما بلغ الاختلاط ذروته بين العرب والعجم وما ترتب عليه من تداخل بين الكلمات العربية وغيرها من الكلمات غير العربية وما يمكن أن ينجر على ذلك من إفساد للعربية لغة القرآن الكريم.

فكان ظهور المعجم أمرا ملحا وضرورة قصوى بغية الحفاظ على اللغة العربية معنى ومبنى وصونها من اللحن والاختلاط، فما هو المعجم إذن؟ وما هي مراحل نشأته وتطوره؟ وما هي التسميات التي عرف بها عبر الزمن؟

2-مفهوم المعجم لغة واصطلاحا:

2. **1 المعجم لغة:** كلمة "معجم" في المعاجم التراثية مشتقة من مادة (ع ج م)، وتفيد معنى الإبهام والغموض و(العجمة)عدم الفصاحة وعدم البيان، و(العُجْمُ) و(العَجَمُ) خلاف(العُرْبُ) و(العَرَبُ)...و(العَجَمُ) جمع (الأعجَمُ) وهو الذي لا يفصح ولا يبين كلامه[1] وإن كان عربيُّ النُّسب، الأنثى(عَجْمَاءُ)، أمّا العَجَميُّ فهو الذي من جنس العجم أفصح أم لم يفصح، ورجل أعجمي وأعْجم، إذا كان في لسانه عُجمَةٌ[2]، وفيه سميت البهيمة عجماء لأنها لا تتكلّم[3]. وأعجمت الكلام: جعلته لا بيان له أو أتى به أعجميا فيه لحن وأعجمتُ الكتاب: ذهبت به إلى العجمة... وأمر معجم إذا اعتاص... وأعجمت الكتاب خلاف قولك:

أعربته، ويضرب لذلك قول الحطيئة:

الشعر صعبٌ وطويل سُلّمه

إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه

والشعر لا يستطيعه من يظلمه

يريد أن يعربه فيعجمه[4]

وإذا أدخلت الهمزة على الفعل يصير(أعجم)، فيأخذ معنى جديدا وهو النفي والإزالة، ففي قولك: أشكيت زيدا؛ أي أزلت شكايته، وأقذيت عينه؛ أي: أزلت ما بها من قذى فذلك من معاني الهمزة.[5]

ويعرفه ابن جني بقوله: "أعلم أن (ع ج م) إنما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان والإفصاح"[6] وقد أطلق العرب على البلاد التي لها لغة غير مفهومة وواضحة لهم، بلاد العجم وكل من لا يقدر على الكلام فهو أعجم ومستعجم...واستعجم الرجل: سكت، واستعجمت عليه قراءته: انقطعت فلم يقدر على القراءة من نعاس...". [7]

فالمعاني التي جاء بها لسان العرب لا تساير المقصود من المعجم إذ تدور حول "الإبهام" و"الإخفاء" ويذهب ابن جني إلى أن الناس يستعملون المعاجم لإزالة غموض الكلمات والعبارات وتباين مدلولاتها ومعرفة طريقة النطق بها، فأين الرابط المعنوي بين المعجم الذي هو أداة لإزالة غموض الكلمات وابهامها وبين مادة "عجم" التي وقعت في كلام العرب للإبهام والخفاء، كما يعبر ابن جني أو التي هي ضد الإفصاح والإعراب، كما يؤكد لسان العرب وغيره من المعاجم العربية.

يظهر أن وزن "أفعل" غالبا ما يأتي للإثبات والإيجاب؛ أي أن همزة "أفعل" قد تقلب معنى الفعل أحيانا إلى ضده، نحو: أشكلت الكتاب، أي أزلت إشكاله، وأشكيت زيدا، أي أزلت شكواه، وجاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا**﴾ (سورة طه: الآية 15)

فلفظة "أخفيها" فسرها أهل التفسير بإزالة الخفاء والسر، وإعجام الكتاب يعني نقطه وإزالة استعجامه، والإعجام هو تنقيط الحروف للتمييز بين المتشابهة منها في الشكل (ب، ت، ث، ج، ح، خ، س، ش...الخ)، ومن هذه الدلالة جاءت تسمية الحروف الهجائية "بحروف المعجم" نظرا لكون النقط الموجودة في كثير منها يزيل التباسها، ومن هذه الدلالة أيضا جاءت تسمية الكتاب الذي يزيل التباس معاني الكلمات بعضها ببعض وغموضها ب"المعجم".

2.2 المعجم اصطلاحا:

عبارة عن كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة العربية مقرونة بشرحها وتفسير معانيها على أن تكون المواد مرتبة ترتيبا خاصا، إما على حروف الهجاء، أو الموضوع، والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبين استعمالها.[8]

كما يعرفه كريستيل دافيد على أنه:" عبارة عن كتاب يحتوي على كلمات مرتبة ترتيبا معينا، مع شرح معانيها بالإضافة إلى معلومات أخرى ذات علاقة بها سواء كانت تلك الشروح أو المعلومات باللغة ذاتها أو بلغة أخرى".[9]

وقد يتفق أحمد مختار عمر في تحديد مفهوم المعجم مع التعاريف السابقة بقوله: "هو الكتاب الذي يجمع كلمات لغة ما ويشرحها ويوضح معناها، ويرتبها بشكل معين ويكون تسمية هذا النوع من الكتب معجما، إما لأنه مرتب على حروف المعجم (الحروف الهجائية)، وإما لأنه قد أزيل أي إبهام أو غموض عنه فهو معجم بمعنى مزال ما فيه من غموض وإبهام. "[10]

ونستنتج مما سلف أن لفظ "معجم" اسم مفعول من الفعل (أعجم)، كما يمكن أن يكون مصدرا ميميا من الفعل، ويكون معناه (الإعجام)، أي إزالة العجمة والغموض والإبهام.

ويعود أول استعمال للفظ "معجم" إلى علماء الحديث، وهذا حسب ما وصل إلينا من المصادر القديمة؛ أي رجال الحديث كانوا الأسبق في استعمال هذا اللفظ بالمعنى الشائع اليوم قبل أن يستخدمه علماء اللغة.

3 مراحل نشأة المعجم العربي وتطوره:

مر المعجم العربي في تطوره بمراحل متعددة حتى بلغ ما هو عليه حاليا، ولم يطلق عليه اسم "معجم" في جميع تلك المراحل، فقد بدأت الدراسة المعجمية العربية انطلاقا من عناية المسلمين بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وحرصهم على فهمهما والوقوف على غريبهما، ونقصد بغريب القرآن وغريب الحديث اللفظ الغامض البعيد الفهم، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل[11]،وكان أول كتاب في غريب القرآن من تأليف عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الملقب بحبر الأمة (ت 68هـ)، ثم تعددت الكتب التي تحمل عنوان غريب القرآن أو غريب الحديث وفي هذه المرحلة(المرحلة الأولى) لم تستخدم كلمة معجم لوصف تلك الأعمال المعجمية.

وفي المرحلة الثانية: أخذ علماء اللغة على عاتقهم مهمة جمع المادة المعجمية من مصادرها الأصلية من خلال مشافهة أعراب البادية، ثم تدوين هذه المادة، ثم تصنيفها تصنيفا موضوعيا وإصدارها في رسائل صغيرة تحمل عنوان "كتاب" مثل: "كتاب الخيل" و"كتاب الإبل" و"كتاب الشاة" ...الخ. وهي بمثابة معاجم مختصة يصنفها عدد غير قليل من أئمة اللغة في ذلك العصر، كالكسائي (ت 216)[12]

ولم تحمل معاجم الموضوعات تلك كلمة معجم في عناوينها وإنما كلمة "كتاب".

أما المرحلة الثالثة: فتميزت بظهور المعاجم العامة المتكاملة، وعامة ما تؤرخ ب كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ)، و"كتاب الجيم" لأبي عمرو الشيباني (ت 306هـ)، وكتاب "البارع" في اللغة" لأبي المفضل الضبي (ت 290هـ)، و"جمهرة اللغة" لابن دريد (ت 321هـ)، وفي هذه المرحلة وما تلاها من مراحل تطور المعجم العربي، إذ نجد أن المعجميين العرب يفضلون إطلاق اسم علم على معاجمهم مثل: "المحيط" و"المحكم"، و"العباب"، و"القاموس"، ولا نجد أثرا لكلمة "معجم" في عناوين هذه التصانيف إلا في أواخر القرن الرابع الهجري، في "المعجم وفي بقية الأشياء" لأبي هلال العسكري. وفي أواخر القرن الخامس الهجري وفي "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" لأبي عبيد البكري، وكلاهما معجم مختص.[13] وتعني لفظة "قاموس" البحر العظيم، أو وسطه، أو معظمه، أو أبعد موضع فيه غورا.

ويظهر أن بعض علماء العربية القدماء الذين حاولوا جمع اللغة، كانوا يطلقون على مؤلفاتهم أسماء من أسماء البحر أو صفة من صفاته، فأطلق الصاحب بن عباد (ت 385هـ) على معجمه اسم "المحيط" وأطلق ابن سيدة (ت 458هـ) على معجمه اسم "المحكم" و "المحيط الأعظم"، وسمي الصغاني (ت 650هـ) معجمه "العباب" إلى أن جاء الفيروز أبادي (ت817هـ) فأطلق على معجمه اسم "القاموس المحيط"، حيث استعمل هذه اللفظة عنوانا لمعجمه ليدل بذلك على سعته وغزارة مادته حيث جمع فيه محاسن أفضل المعاجم التي سبقته كالمحكم والعباب، وجعله في حجم يسهل تداوله وحمله، فذاع صيته في كل مكان وشاع ذكره على كل لسان، ونال ثقة العلماء وطلاب العربية لما امتاز به من ضبط وإيجاز، ودقة، وبعد طبعه في القرن الماضي شاعت هذه اللفظة (القاموس) لشيوع هذا

المعجم وانتشاره حتى أصبحت فيما بعد مرتبطة ارتباطا وثيقا بمدلول المعجم، ومتداولة بهذا المدلول، وانتقلت من معناها الخاص "القاموس المحيط" إلى معنى عام وهو أي معجم آخر.

تطور استعمال لفظة "قاموس" واتسع إلى درجة أمست تطلق في وقتنا الحالي على المعاجم الصغيرة، ومعاجم الجيب المختصرة تجوزا وتوسعا، وتولد للفظة "قاموس" معنى جديدا في أذهان الناس، فكانوا يقولون: فلان قاموس لكذا... أي جامع لعلمه، وربما تندروا قائلين: فلان يتقامس في كلامه إذا كان يوشي كلامه بوحشي من ألفاظ القاموس.[14]

إذن شاع استعمال لفظة "قاموس" فصارت تطلق على أي معجم، وظلت موضع خلاف بين العلماء، فمن معارض لها ومن مدافع عنها إلى أن أقر مجمع اللغة العربية باستعمالها واعتبر أن إطلاق لفظة "قاموس" على أي معجم من قبيل المجاز أو التوسع في الاستخدام.[15]

ولا شك في أن أحمد بن فارس الشدياق (1804م-1888م) عندما وضع كتابه "الجاسوس على القاموس" ساهم في شيوع لفظة "قاموس" بمعناها المولد؛ أي بمعنى لفظة "معجم"، حتى أن سعيد الشرتوني(1849م-1912م) عندما وضع معجمه "أقرب الموارد" أثبت فيه المعنى المولد لكلمة قاموس...فقال: "القاموس" كتاب الفيروز أبادي في اللغة العربية، لقبه بالقاموس المحيط ويطلقه أهل زماننا على كل كتاب في اللغة، فهو يرادف عندهم كلمة معجم وكتاب اللغة[16] ثم حافظ واضعوا المعاجم العربية بعد الشرتوني على المعنى المولد.[17]

وفي وقتنا الحالي تطغى كلمة "قاموس" على كلمة معجم في الشهرة والشيوع، إذ أخذ كثير من مؤلفي المعاجم يطلقون على معاجمهم كلمة قاموس وبخاصة المعاجم ثنائية اللغة.

ولفظة قاموس مشتقة من مادة قمس، وجاء في لسان العرب لابن منظور: قمس في الماء يقمس قاموسا، انغط ثم ارتفع، وقمسه وانقمس، أي غمسه فيه فانغمس يتعدى ولا يتعدى، والقاموس والقومس: قعر البحر. [18]

وهذا شأن كثير من المعاجم اللاحقة التي جعلت من لفظة "القاموس" أساسا لها مثل "محيط المحيط "لبطرس البستاني (1811م-1883م).

ويرى عباس الصوري الذي كان من أوائل الذين درسوا مشكلة تسمية (المعجم والقاموس) أن هذه الظاهرة كادت أن تتكرر بعد صدور معجم"المنجد" للويس معلوف وانتشاره فيقول: "أضحى هذا المعجم ظاهرة العصر بحيث نجده في مكتبة الأديب والباحث والمدرس والتلميذ في أحجام كبيرة ومتوسطة وصغيرة، ولاتساع نطاق شهرته بين متعلمي اللغة العربية غطى اسمه على بقية المعاجم الأخرى إلى حد اختلط الأمر على الطلاب، فأصبحوا يستعملون لفظة "المنجد" للدلالة على معنى القاموس"[19]

4- تسميات المعجم:

4. 1بين المعجم والقاموس:

يورد صاحب القاموس في مادة "قمس" أنها تعني "الغوص" وأن القاموس هي بئر تغيب فيها الدلاء من كثرة مائها، أما القاموس فهو معظم ماء البحر.[20]

وتستخدم لفظتا "معجم" و"قاموس" في اللغة العربية بوصفهما مترادفتين، ويترجم جوزيف نعوم حجار في المنجد العربي الفرنسي للطلاب كلمة "قاموس" بالمقابل" Dictionnaire"دون الإشارة إلى معنى البحر عليه، فهو يطلق كلمة "قاموس" مرادفة لكلمة "معجم" غير أنه من المنطق الفصل بين الكلمتين، فيستعمل المصطلح الأول للدلالة على كل كتاب أو تأليف له هدف تربوي وثقافي يجمع بين دفتيه قائمة من الوحدات المعجمية التي تحقق وجودها بالفعل في لسان من الألسنة ويخضعها لترتيب وشرح معينين ويقابله في الفرنسية كلمة" Dictionnaire"، أما مصطلح (معجم) فهو أنسب للدلالة على المجموع المفترض واللامحدود من الوحدات المعجمية التي تمتلكها جماعة لغوية معينة بكامل أفرادها بفعل القدرة التوليدية الاشتقاقية الهائلة للغة، ويقابله في الفرنسية كلمة" lexique."[21] هنا يتبين أن بين المعجم والقاموس فرق واعتبارهما مترادفين نوع من الخطأ الشائع، كما يرى عبد القادر الفاسي الفهري الذي يدعو إلى التمييز بين المصطلحين حين يقول عن القاموس (إنه الصناعة التي تتوق إلى حصر لائحة المفردات ومعانيها، أما المعجم فهو المخزون المفرداتي الذي يمثل جزءا من قدرة المتكلم أو المستمع اللغوية).[22]

ويؤكد ابراهيم السامرائي هذا الرأي أنه بين "المعجم" و"القاموس" فرق ورغم ذلك لا ينفي أن كلمة "قاموس" أصبحت مرادفة لكلمة "معجم" في اللغة العربية الفصيحة المعاصرة.

ودخلت في "المعجم الوسيط" لمجمع اللغة العربية في القاهرة وفي "المعجم العربي" الأساسي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم [23] عام 1989م، بيد أن أصحاب الاختصاص والمصطلحيين يحبذون أن يختص المفهوم العلمي الواحد بمصطلح واحد لتكون نصوصهم ذات دلالة دقيقة مضبوطة، وهكذا فهم يميلون إلى التخلص من الترادف والاشتراك اللفظي للتخلص من أي تشويش دلالي محتمل.

ومنه نصل إلى التمييز بين مفهوم المعجم الذي يتمثل في مجموع المفردات المفترض للغة، ومفهوم "القاموس" الذي يتمثل في مجموعة المفردات التي يضمها كتاب مع معلومات لغوية أو معرفية عنها؛ أي أن كلمة "معجم"(ينبغي أن تطلق على المخزون المفرداتي الذي يمثل جزءا من قدرة المتكلم اللغوية، في مقابل كلمة "قاموس" التي يجب أن تطلق على المجموع المفرداتي في كتاب).[24]

وعلى هذا الأساس خصصت كلمة "قاموس" للدلالة على نوع معين من المعاجم وهو "المعجم أحادي اللغة"، وخصصت كلمة "معجم" للدلالة على نوع آخر من المعاجم هو "المعجم ثنائي اللغة".

4. 2 بين المعجم والموسوعة:

يلتقي المعجم مع الموسوعة في سعة المحتوى والوظيفة المرجعية، وفي ترتيب المداخل أو الموارد على نحو معين يغلب فيه التسلسل الهجائي للغة.

بيد أن "الموسوعة" هي معجم ضخم يشغل مجلدات كثيرة، في حين أن "المعجم" يتفاوت حجمه تبعا للغاية المرجوة ولنوعية مستعمله.

فالمعجم يختلف عن الموسوعة بطابعه القومي حيث ينصب اهتمامه على ألفاظ اللغة القومية وصيغها وتراكيبها، يفسرها ويحصي معانيها ويتتبع تصاريفها ويبين استعمالاتها وطرق نطقها، وتبيان مقابلتها في اللغات الأخرى، بينما تهتم الموسوعة بالمعارف الإنسانية

والمفردات الحضارية عامة، وتعنى بذكر ما يرتبط بالألفاظ أو المداخل المدرجة فيها من علوم وفنون، أو مشاهد، ومعالم وأحداث وأشياء، وأشخاص. بمعنى أن المعجم يهتم بالوحدات المعجمية للغة، وبالمعلومات الخاصة بها، أي لا يهتم كثيرا بالمواد غير اللغوية، وإذا ذكرها فبصورة مقتضبة جدا، في حين أن الموسوعة إلى جانب اهتمامها بالمعاني الأساسية للوحدات المعجمية تعطي معلومات عن العالم الخارجي (فالمعجم اللغوي يشرح الكلمات أما الموسوعة فتشرح الأشياء).[25]

ورغم هذه الاختلافات إلا أنه قد يحصل بعض التداخل أحيانا بين المعجم والموسوعة من حيث الوظيفة أو التسمية، فيصبح المعجم أشبه بالموسوعة عند احتوائه على معارف أو معلومات، أو مفردات خارجة عن مجاله الذي يهتم به وهو متن اللغة أو عند توسعه في الشرح وميله إلى التفصيل فيما من شأنه الاختصار، أو جنوحه إلى الاستطراد والاسهاب في ذكر ما يختص بذكره كتاب آخر غيره، وقد يوصف في مثل هذه الحالات تجوزا بأنه معجم موسوعي موجز، بمعنى أنه يجمع بين ما هو من جوهر اختصاصه وأشياء موجزة مما تختص به الموسوعة.[26]

وقد يستخدم المعجم بمعنى أوسع من مفهومه فيطلق على الموسوعة المعرفية أو ما يناظرها من كتب المعارف العامة الواسعة لما يحمله مفهوم هذين المصطلحين (معجم وموسوعة) من طابع التحقيق والشرح، والتفسير، وإزالة اللبس والإبهام عن المفردات.

وظلّ لفظ "المعجم" يطلق على لفظ "الموسوعة" حتى في العصور الوسطى، وفي العصر الحديث أيضا على الرغم من شاع مصطلح "الموسوعة". وربما كان ذلك لما اشتهر عن المعجم وترسخ في الأذهان من سمات الإحكام والتتبع والدقة، والرصانة والحرص والتوثيق فيه.

وقد تعدد فيما بعد إطلاق لفظ "معجم" على لفظ "موسوعة" في عدد من اللغات العالمية، فأطلق توماس كورنييه (Thomas corneille)على موسوعته التي تعد أول موسوعة ذات مستوى عال اسم معجم الفنون والعلوم(le dictionnaire des arts et des sciences)

وبقي الأمر على حاله في إطلاق مصطلح "معجم" على بعض الموسوعات المعرفية العربية الخاصة المؤلفة أو المترجمة في العصر الحاضر، فصدر بهذا الاسم "معجم المؤلفين" لعمر رضا كحالة، و"معجم الحضارة المصرية القديمة" لأمين سلامة، و"معجم الفلاسفة" لجورج طرابيشي...الخ.

ومن خلال هذه الفروق الموجودة بين "المعجم" و"الموسوعة" يمكننا أن نخلص إلى أهم المميزات والخصائص التي تنفرد بها الموسوعة عن المعجم، وهي:

- اشتمالها على أسماء الأعلام من أشخاص ومواضع، وأعمال أدبية.
- احتواؤها على فروع المعرفة المختلفة.
- معالجتها للحقائق معالجة شاملة[27].

5-أنواع المعاجم العربية قديما وحديثا:

أبدع الإنسان على مر الزمن في تأليف المعاجم، وفي ترتيب وتصنيف مفردات اللغة تحذوه في ذلك الحاجة الماسة، وتطورات الحياة وأسباب العيش، ويدفعه حبه للابتكار ورغبته في خدمة المعرفة، كما تملي عليه أحيانا تطورات وتغيرات اللغة نفسها لما تستهدفه من تطورات حضارية، وما ترتبط به من معارف وعلوم وما يتولد عن ذلك من مفردات وصيغ، ونتيجة لهذه العوامل وعوامل أخرى مختلفة ظهرت في كثير من اللغات معاجم لغوية متنوعة ومتعددة الأشكال والمناهج، والوظائف والأغراض.

ولأجل ذلك تفنن العرب قديما في طرق ترتيب وتبويب معاجمهم، وفي هذا يقول أحمد مختار عمر: "لا تعرف أمة من الأمم في تاريخها القديم والحديث قد تفننت في أشكال معاجمها، وطرق تبويبها وترتيبها كما فعل العرب".[28]

ويظهر من قول أحمد مختار عمر أن العرب عرفت طرقا متعددة في وضع المعاجم بالنظر إلى جانبين هامين، وهما اللفظ والمعنى، وعليه جاءت معاجمهم إجمالا مرتبة إما على اللفظ، وإما على المعنى، وقد أفرز هذا الترتيب قسمين رئيسيين من المعاجم وأهمها، معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني أو الموضوعات.

5-1 معاجم الألفاظ: جاءت في عدة أشكال وفقا لترتيب الحروف الهجائية، وهي:

-الترتيب الصوتي: حيث ترتب فيه الكلمات تحت حرفها الأول بحسب مخرج الحرف من الجهاز الصوتي للإنسان. ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) رائد هذا الترتيب حيث امتاز بعقلية علمية ورياضية بارعة، فضلا عن الخبرة الواسعة بأمور اللغة وما يتعلق بها.

-الترتيب الألفبائي أو الهجائي: يراعى فيه التشابه الكتابي للحروف، فيضع الثلاثيات متجاورة، ثم الثنائيات، وينتهي بالحروف المفردة.

-الترتيب الأبجدي: وهو أقدم ترتيب وضعه وعرفه العرب، وهو ترتيب فينيقي الأصل والعرب لم تستعمل هذا الترتيب وإنما اكتفت باستعمال الترتيبين الأولين فقط.

2-5 معاجم المعاني أو الموضوعات: هي معاجم ترتب الألفاظ اللغوية بحسب معانيها أو موضوعاتها، بمعنى تلتزم بوضع المفردات المتصلة بموضوع واحد في مكان واحد كالألفاظ الخاصة بأعضاء الجسم أو القرابة، أو الألوان، أو النبات ... إلخ.

وقد عرفت اللغة العربية هذا النوع من المعاجم منذ بداية حركة جمع اللغة في شكل رسائل معجمية صغيرة، لا تتعامل إلاّ مع المفردات المتصلة بموضوع واحد، مثل: رسالة في خلق الإنسان، أو رسالة في خلق الإبل ... إلخ، ولعل أمثلة هذه المعاجم الموضوعية القديمة نجد أكبر معجم يمثل هذا النوع هو معجم "المخصص" لابن سيدة (ت 458هـ)، ونجد أيضا كتاب "الألفاظ الكتابية" للهمذاني (ت 933هـ)، وكتاب "فقه اللغة" للثعالبي (ت 429هـ).

أما في العصر الحديث فأصبحنا نشهد أنواعا مختلفة من المعاجم، منها:

أ-المعاجم اللغوية أو المعاجم العامة :تتصف عادة بالشمول وغزارة المادة وسعة المحتوى، والإحاطة بمفردات اللغة، حيث تقوم بشرح ألفاظ اللغة وكيفية ورودها في الاستعمال بعد أن ترتبها وفق نمط معين من الترتيب، لكي يسهل على الباحث العودة إليها لمعرفة ما استغلق من معانيها، وهذا النوع من المعاجم هو الذي تندرج ضمنه جل المعاجم القديمة.

ب- المعاجم الخاصة أو معاجم التخصص: وإن كانت تلتقي مع المعاجم العامة في هدفها العام، وهو خدمة اللغة، وفي هدفها الخاص وهو إمداد الفرد الباحث بما ينمي محصوله اللفظي، فإن أثرها كبير في مجالاتها المخصصة وأغراضها المعدة لها، وهي التي تجمع ألفاظ علم معين، أو فن ما ومصطلحاتهما، ثم تشرح كل لفظ أو مصطلح حسب استعمال أهله والمتخصصين فيه، فهناك مثلا: معاجم للزراعة، وأخرى للطب.....إلخ.

ومن المعاجم القديمة التي ألفت على هذه الشاكلة نجد "كتاب التذكرة" لداوود الأنطاكي الضرير (ت 1008 هـ)، وفيه قسم كبير للعقاقير والأعشاب الطبية، وكتاب "حياة الحيوان" للدميري (ت 808هـ) الذي جمع فيه أسماء الحيوان والحشرات والزواحف، والطيور معرفا بها وبخصائصها كل منها على طريقة عصره.[29]

ج- معاجم الترجمة أو المعاجم الثنائية اللغة: وهي في مقابل المعاجم أحادية اللغة التي تستخدم لغة واحدة، أي تكون الكلمات من اللغة نفسها المستخدمة في التعريف أو الشرح، عربي-عربي أو فرنسي- فرنسي ....إلخ. وتندرج المعاجم القديمة تحت هذا النوع، في حين أن المعاجم الثنائية اللغة، فهي التي تجمع ألفاظ لغة أجنبية لشرحها واحدا واحدا، وذلك بوضع كل لفظ أجنبي أمام ما يقابله في المعنى من ألفاظ اللغة القومية كأن يستخدم المعجم في شرح أو تعريف لغة غير لغة المداخل أو المتن، مثلا: إنجليزي-عربي أو العكس، مثل: معجم "المورد" لمنير البعلبكي.

وهذا النوع من المعاجم من أقدم أنواع المعاجم إذ استخدمه الساميون في العراق حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، وفي عصرنا الحاضر يستخدم هذا النوع من المعاجم في التجارة والأعمال المصرفية والعلاقات الدولية، مما جعل الدقة في الترجمة أمرا لا غنى عنه.

كما ظهرت في وقتنا الحديث أنواع عكسية لهذا النوع من المعاجم، وهي التي ترتب ألفاظ اللغة القومية على نمط معين، ثم تأتي بما يرادفها بلغة أجنبية. ففي المجتمع العربي نجد معاجم عربية–فرنسية وأخرى فرنسية–عربية، ومعاجم عربية–انجليزية، وإنجليزية–عربية. والهدف منها هو تسهيل التلفظ والكتابة باللغة الأجنبية.

د– المعاجم الاشتقاقية أو التأصيلية: وهي التي تبحث في أصول ألفاظ اللغة فتدلنا إن كانت الكلمة عربية الأصل أم فارسية، أم يونانية....إلخ.

وهذا النوع من المعاجم قد يتداخل مع نوع آخر من المعاجم يسمى ب "المعاجم التاريخية"، في استعمال المقارنات اللغوية كأداة أصيلة لها، مثلما تستخدم المعاجم التاريخية ذلك.

هـ– المعاجم التاريخية: وهي معاجم لا تلتزم بفترة زمنية معينة أو مكان محدد مثل: المعاجم الوصفية، وإنما تنطر إلى المراحل المختلفة التي مرت بها حياة اللغة نظرة شاملة ومتكاملة، خاصة من ناحية الاستعمال، بحيث ينتهي ترتيب التطور في استعمال المفردات من حيث المبنى والمعنى منذ أقدم العصور حتى العصر الذي تم فيه عمل معجم. ومعنى هذا إن المعاجم التاريخية تقوم بسرد تاريخ الكلمات أو الوحدات اللغوية في إطار حياة اللغة، كما توضح أيضا ميلاد المفردات والمعاني الجديدة لها واختفاء بعض المفردات من الاستعمال وزمان كل منها، كما تقارن بين المفردات من حيث أصلها داخل عائلة لغوية واحدة، مثل مقارنة اللغة العربية بلغات العائلة السامية...وغيرها.

والمعجم اللغوي التاريخي للغة العربية لم يظهر حتى الآن، غير أن مجمع اللغة العربية في مصر أصدر ما يشبه المعجم اللغوي التاريخي للغة العربية تحت عنوان "المعجم الكبير".

و– المعاجم الموسوعية: وهي نوع من المعاجم لا يقف عند حدود شرح المفردات ومعانيها، وإنما يتجاوز ذلك إلى معلومات أخرى غير لغوية، حيث يعتبر سجلا للعلوم والفنون وغيرها من مظاهر النشاط العقلي لدى الإنسان. فمادة "النحو" مثلا، إذا كان المعجم اللغوي يفسرها ويظهر معانيها واشتقاقاتها، فإن الموسوعة تعرف بعلم النحو ونشأته وتطوره، وأهم أعلامه ومصادره ومراجعه، وقد يندرج ضمن هذا النوع من المعاجم معجم "المنجد" الذي أصدره الأب لوييس المعلوف عام 1908م.

ي- المعاجم الموضوعية أو معاجم المعاني: وهي نوع من المعاجم تختلف في ترتيب المفردات ونوعها وكمها، إذ ترتب المفردات وفق الموضوع أو المعاني التي تتصل به؛ أي أنها تلتزم بوضع المفردات المتصلة بموضوع واحد في مكان واحد، ويمثل هذا النوع من المعاجم معجم "المخصص" لابن سيدة، ومعجم "فقه اللغة" للثعالبي وغيرها قديما. وهذا النوع من المعاجم يدرسه علم اللغة المعاصر ضمن نظرية علمية تعرف باسم نظرية الحقول الدلالية، (theorie des champs semantiques).

ويبقى من بين هذه الأنواع من المعاجم الأكثر أثرا وفعالية في تنمية الثروة اللغوية للفرد "المعاجم اللغوية العامة" لأنها أوسع وأشمل، وأكثر استيعابا لمفردات اللغة ولذلك (تحتل المقام الأول من بين أنواع المعاجم الأخرى).[30]

6- خاتمة:

التأليف المعجمي عند العرب المتقدمين والمتأخرين لم يكن إلا لأجل أن يبقى الكلام الفصيح مفهوما، والمعنى ظاهرا غير خفي ولا ملتبس لدى السامع، ولكي لا ينقرض جزء من الثروة اللغوية التي تم تصنيفها بشكل تجريدي من خلال الاختبار الفعلي عن طريق التتبع في الاستعمال بناء على علاقة الألفاظ بالمعاني من جهة وعلاقة الألفاظ بعضها ببعض من جهة أخرى.

وحينما رأى الأوائل ضرورة جمع اللغة سلكوا في ذلك مسالك شتى، فمن تأليف في شكل رسائل في معنى واحد معين، إلى التأليف الشمولي للمادة اللغوية في أكثر من موضوع، ومن اعتماد الأساس البنوي أو ما يسمى بمعاجم الأبنية ومثاله "كتاب ديوان الأدب" للفارابي (ت 393هـ) أو صوتيا كما في "معجم العين" للخليل (ت 175هـ). وأيا يكن الأمر، فإن السبب والهدف على حد سواء كان جزءا من تسمية المعجم، لأن الإعجام هو إزالة العجمة؛ أي الغموض بإخراج الكلمة من حيز الغموض إلى حيز الوضوح.

إذن تأليف المعاجم من أعظم ما ابتكره الإنسان للحماية اللغة والحفاظ عليها ولأجل بقائها دائما حية ومتطورة، حيث أن المعاجم هي التي تتولى تفسير المفردات وتوضيحها وبيان استعمالاتها، كما تتكفل بتمييز الأصيل من الدخيل، والشائع من النادر، والشاذ من المتداول، والحديث من القديم في كل هذه المفردات. فيرجع الإنسان إليها ليتزود منها بما يتلاءم وحاجته في التعبير عن أفكاره ومشاعره ومعانيه ونقل خبراته ومعارفه، كما يتعرف على ما صعب عليه فهمه من مدلولات وصيغ، وبذلك يحيي لغته ويبقيها ثابتة حية ونامية.

7 الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط1، المجلد 10، بيروت، ص 49. مادة (عجم)

[2] المصدر نفسه، ج 12، صفحة 385.

[3] الصفحة نفسه، ص 385.

4 الحطيئة: الديوان، رواية: ابن حبيب عن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، شرح: أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، 1981، ص 239.

[5] زين كامل الخويسكي، المعاجم العربية القديمة والحديثة، دار المعرفة الجامعية، الإزرايطة، الإسكندرية، 2007م، ص 32

[6] لسان العرب، مادة (عجم)، ج12، ص 385.

[7] ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: مصطفى سقا وغيره، البابي، ط1، القاهرة، 1984م، ص 40.

[8] أحمد عبد الغفور عطار، مقدمة الصحاح، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1979م، ص 38.

[9] Gustal david, the cambridge ency of langage, cambridge university, press, cambridge, 1991, p 108.

[10] أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، ط4، بيروت، 1982م، ص 116.

[11] أحمد الشرقاوي إقبال، معجم المعاجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص 7.

[12] جواد حسني عبد الرحيم سماعنة، المصطلحية العربية بين القديم والحديث، أطروحة دولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999م، ص 381.

[13] ابن منظور، لسان العرب (مادة قمس).

[14] عدنان الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، مطبعة، النهضة الجديدة، القاهرة، 1968م، ص 49.

[15] المرجع نفسه، ص 50.

[16] سعيد الشرتوني، أقرب الموارد، في فصح العربية والشوارد، منشورات إيران، 1403هـ، ج2، مادة (قمس).

[17] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مطبعة دار الفكر، ج1 و2، مادة (قمس).

[18] لسان العرب، مادة (قمس).

[19] عباس الصوري، في الممارسة المعجمية للمتن اللغوي، مجلة اللسان العربي، ع 45، الرباط، 1998م، ص 16.

[20] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، مصر، 1301هـ، مادة (قمس).

[21] ليلى المسعودي، ملاحظات حول معجم اللسانيات، مجلة اللسان العربي، ع3، 1991م، ص 209.

[22] عبد القادر الفارسي الفهري، تعريب اللغة وتعريب الثقافة، المجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، أوت 1985م، ص73.

[23] عباس الصوري، في الممارسة المعجمية للمتن اللغوي، ص 9.

[24] علي القاسمي، المعجم والقاموس –دراسة تطبيقية في علم المصطلح–، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، ع6، الجزائر، 2002م، ص60.

[25] أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 1998م، ص 22

[26] أحمد محمد معتوق، المعاجم اللغوية العربية، المعاجم العامة وظائفها ومستوياتها وأثرها في تنمية لغة الناشئة –دراسة وصفية تحليلة نقدية–، إصدارات المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، 1999م، ص21.

[27] علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعاجم، جامعة الملك سعود، الرياض، 1411هـ، ص 43.

[28] أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 120.

[29] إميل يعقوب، المعاجم اللغوية العربية –بداءتها تطورها، دار العلم للملايين، بيروت، دت، ص 18.

[30] المرجع نفسه، ص 31.